التواصل بين القيم النقدية والمفاهيم الإسلامية
المدحة النبوية بالغرب الإسلامي نموذجاً

عبد الله بنصر العلوي
كلية الآداب - فاس - المغرب

النبويات مصطلح نقصد به كل ماكتب عن الرسول سيدنا محمد « صلى الله عليه وسلم » سواء في مجال الفكر أو الإبداع. ومن الإبداع القصيدة المادحة التي تختص بالرسول، والتي أصبحت غرضاً متميزاً بين أغراض الشعر العربي له مقوماته وخصائصه، وله مراحل النشأة والتطور(١).

ولعلنا نبعد في المرحلة الأولى مديح الرسول في عهده لما تضمنه من ظروف وملابسات لم يستهدف - من خلالها - المدح بقدر ما استهدف نصرة الدعوة أو الاعتذار(٢). أما في المراحل الأخرى فقد شاع لدى كثير من الباحثين أن قصيدة المدحة النبوية لم تظهر في الشعر العربي في المشرق إلا في القرن السادس والسابع للهجرة(٣)، في حين كان الغرب الإسلامي سباقاً لهذه الظاهرة وأكثر اهتماماً بها (٤)، ولعل توسل عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨هـ) من أقدم القصائد في هذا المجال (٥)، ويمكن اعتبار قصيدة عبد الله يحيى الشقراطيسي (ت ٤٦٦ هـ) المسماة: « الشقراطيسية في مدح خير البرية » وهي تقع في ١٣٥ بيت - من القصائد الأولى التي رسخت هذه الظاهرة، وشكلت إبداعاً إسلامياً اهتم به الشعراء كمحمد بن علي الجذامي (ت ٥٣٠ هـ) وأبي عبد الله بن أبي الخصال (ت ٥٤٠ هـ) (٦)، والقاضي عياض (٥٤٤ هـ) وغيرهم خلال القرن السادس الهجري، وتكاثر الشعراء في الاستجابة لهذه الظاهرة في القرون التالية، وتعددت أنماط إبداعهم، ويضيق المجال بعرض أعلام الشعراء وقصائدهم.

إشكالية المفاهيم:

وهذه الاستجابة لم تكن تقديراً لمكانة الرسول ﷺ في النفوس، أو تفانياً في محبته والشوق إليه، أو تسلياً عن بعد المزار، أو حنيناً لأرض الحجاز فحسب، بل لما يمثله الرسول ﷺ من قيم إسلامية عليا تتيح للمبدع استلهاماً للقدوة وتأثراً بالشخصية. ومن ثم اصطبغت هذه الظاهرة بالأثر الإسلامي، وتكونت رؤية إسلامية في الشكل والمضمون، مما أعطى «للإسلامية» - التي تشهدها مذهباً معاصراً - جذوراً.. بل تصوراً، إن لم يكن تأصيلاً لقيم لها من الثبات والوضوح والالتزام ما يحقق إنسانية الأدب. ولا يتضح ذلك إلا عبر مقاربة المديح النبوي للإسهام في التغلب على الإشكاليتين الآنفتي الذكر.

فبالنسبة لإشكالية المصطلح - ونعني ما يعتريه من غموض الدلالة أو ضيق بناء القصيدة.

فالأنماط تعين اتجاهات القصيدة، فهناك البرديات والبديعيات والمولديات والغراميات والحجازيات والنجديات والتعليات والسلطانيات والربانيات والتوسلات والتصليات.

والأشكال تحدد الإطار الفني للقصيدة، فهناك القصائد والمقطوعات والوتريات والتوجيهات والمعارضات والمسمطات والمقصورات والموشحات والتربيع والتخميس والمسدسات والمعشرات والعشرينيات، ويدخل في هذا القسم التضمين والاقتباس والتورية.

أما بناء القصيدة فيشمل النسيب وبراعة الاستهلال وحسن التخلص وحسن المقطع وكذا الانسجام.

أما بالنسبة لإشكالية التواصل بين المفاهيم النقدية والقيم الإسلامية فإن كثيراً من النقاد لمسوا العلاقة بين الشعر والدين، أو الشعر والأخلاق مما أثر في مفاهيمهم النقدية، رغم أنها لم تشكل مذهباً له من المنهج والتحليل ما يبلور وحدته.

ولعل قضية الصدق والكذب في الشعر من أكبر القضايا التي تناولها النقاد، وقد سلكوا فيها سبلاً متعددة المشارب والرؤى. فابن طباطبا مثلاً يجعل عنصر الصدق - وهو مختلف الدلالة عنده - أهم عناصر الشعر وأكبر مزاياه لأنه صنو للجمال والحق. كما أن الآمدي يحرص على الصدق في الشعر، وابن رشد ينفر من الكذب أو ما أسماه الغلو الكاذب ويميل إلى الصدق في الشعر، وهؤلاء النقاد وغيرهم متأثرون بالتصور الإسلامي للشعر كشأن ابن رشيق والباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم، في حين نجد بعض النقاد كقدامة - وهو ممن

رسخوا مصطلح الغلو في النقد – يقول: «إن الغلو عندي أحمد المذهبين وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً» وهو مذهب لا يستجيب للتصور الإسلامي، ومع ذلك فقد تناوله النقاد ودعوا إليه حريصين على الفصل بين الشعر وبين الدين والأخلاق كشأن ابن المعتز والصولي والقاضي الجرجاني وغيرهم.

وبالرغم من حضور التصور الإسلامي أو غيابه نجد أن مواقف أغلب النقاد عبرت عن احترام الإسلام وإجلاله في النصوص الإبداعية، فالباقلاني ينكر التفحش في الشعر، والثعالبي يحاول أن يجعل للدين تدخلاً في المقياس الأدبي، وعبد القاهر الجرجاني يرفض عبث الشعراء بالمفاهيم الدينية أو الاستهانة بها في سبيل الإغراب.

خصوصية المغرب العربي:

أما في الغرب الإسلامي فقد أدى التواصل بين المفاهيم النقدية والقيم الإسلامية – انطلاقاً من المدحة النبوية – إلى بلورة تصور إسلامي نقدي على نحو ما يتضح لدى لسان الدين بن الخطيب والحسن اليوسي وأبي سالم العياشي.

فابن الخطيب (٧) يقسم الإبداع الشعري إلى نمطين أساسيين هما: نمط السحر ونمط الشعر، ويعني نمط السحر ما أصله الإيغال والمحاكاة والخيال والتمجن. ويعني نمط الشعر ما قصر عن ذلك. ولم يفصح ابن الخطيب بدقة عن دلالة المصطلحين – شأن شيخه ابن ليون (٨) رغم أن الفرق بين النمطين كثير اللطافة كما يقول ابن الخطيب. ولعل استجلاء النصوص الشعرية التي ساقها يمكن الباحث من استشفاف المعايير النقدية لمحاولة تنظير هذين المصطلحين تنظيراً نقدياً محكماً.. وإلى حين ذلك أحسب أن ابن الخطيب يستند إلى المعيار الجمالي الغالب في نمط السحر، وإلى المعيار الديني في نمط الشعر. ومن ثم فإن إشارة ابن الخطيب إلى موقع المدحة النبوية في النمطين يعتبر رأياً

جديراً بالأهمية، إذ أنه يشكل رؤية نقدية فيها عناصر جادة، يقول ابن الخطيب بعد أن أورد أبياتاً في المديح النبوي: «وكما أن الشعر لم يتعلمه الرسول ﷺ ولا ينبغي له لئلا يرتاب المبطلون، وذلك في حقه كمال، بخلافه في حق غيره، كذلك يبعد أو يمتنع أن يوجد قسم السحر في مدحه، إذ أصله الإيغال والمحاكاة والخيال والتمجن.. ووقار جانبه ﷺ يبهر النفس ويمنع استرسالها في ذلك، فالمجيد من عول على نصاعة اللفظ وقصد الحق وقرب المعنى وإيثار الجد، اذ غيره من الأغراض سبيل الهزل.

كان المغرب العربي سباقاً في المدحة النبوية التي لم تظهر في المشرق العربي إلا في القرنين السادس والسابع للهجرة

وإذا كانت المدحة النبوية ليست على نمط السحر فهل هي على نمط الشعر؟ إن ابن الخطيب لا يبين عن ذلك، وإن ألمح إليه حيث يشير إلى أن من أقسام الشعر ما «اشتمل على لفظ فصيح ورصف صحيح وقافية وثيقة وإشارة من العبارة أنيقة، واشتمل على الحكم والأمثال ومعظم الشعر على هذا المثال. والمدحة النبوية من ذلك. وما هذا التحديد إلا نفس المقومات التي اشترطها ابن الخطيب في الشاعر المجيد في المديح النبوي.

أما اليوسي فيربط في مفهومه للشعر بين غرضه والقيم الإسلامية ملحاً على ضرورة خضوع الإبداع للتصور الإسلامي، فيرى «.. فضل الشعر وأن لا بأس به أصلاً، غير أنه ليس على إطلاقه «أي» أن الشعر كله محمود ومرضي فإن هذا خطأ وغلط، بل هو على تفصيل. فما كان متضمنا الثناء على الله تعالى أو لمديح النبي ﷺ وأصحابه أو الأنبياء والملائكة وكل من يجب تعظيمه وتوقيره والثناء عليه في الدنيا والترغيب في الآخرة، فهو مندوب إليه مرغب فيه، وما كان متضمناً للتنبيه والوعظ والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة ونحو هذا فكذلك أيضاً، وما كان متضمناً للهجو وإيذاء كل من عرضه معصوم فهو حرام. ويتفاوت في القبح والشدة بحسب المؤذى، حتى ينتهي إلى الكفر كما في حق الأنبياء، وما كان خالياً من هذين الأمرين فهو من المباح في الجملة، إلا أنه إن اشتمل على وصف القد والخد والمجون التي تحرك دواعي الشهوة والغواية فهو قد يحرم أو يكره أو يباح بحسب حال القائل والمخاطب. (٩).

ومع أن اليوسي لم يفصل هذه الأحوال فقد تنبه إلى طبيعة الإبداع في الشعر – خاصة – وما يتطلبه من عناصر الجودة والخيال من خلال المقارنة بين الشعر والنثر، وقد أفضت به إلى «أن الشعر قد حسنت فيه أشياء لم تحسن في النثر، وذلك مما يفضله به الأدباء، منها الكذب الذي وقع الإجماع على حرمته فإنه جائز في الشعر، إلا أن في المبالغة والإيغال تفصيلاً مذكوراً في علم الأدب، وأفضل الأمور الصدق وما قرب منه».

ومن خلال ذلك يتلمس اليوسي أسباب عدم

الباقلاني ينكر التفحش في الشعر، والثعالبي يجعل للدين تدخلاً في المقياس الأدبي، وعبد القاهر الجرجاني يرفض عبث الشعراء بالمفاهيم الدينية

تعاطي فحول الشعر للمدحة النبوية في تعليقه على بيت أبي الطيب :

وما كان ترك الشعر إلا لأنه

تقصر عن وصف الأمير المدائح

يقول: «وما أحق أن يتمثل بهذا عند ترك الاشتغال بمديح النبي ﷺ فإن أكثر الفحول تركوه، واشتغلوا بمديح غيره، وما ذلك إلا عجزاً، فإن نباهة مكانه ﷺ وجلالة جانبه تبهر العقل وتحير الفكر فلا يستطيع أن يجول فيه، ولو جال لقصر».

كما يعي اليوسي طبيعة القصيدة المادحة وما تتطلبه من المبالغة، يقول: «إن المديح إنما يحسن ويستغرب لاشتماله على محاسن وأوصاف كمال الممدوح يتفطن لها الشاعر دون غيره، ويبالغ فيها أكثر مما يستحق الممدوح ويظن به».

<u>ملاحظات اليوسي:</u>

لكن في المدحة النبوية تصبح المبالغة تقصيراً، يقول: «وقد علم في حق النبي ﷺ أن كل ما يتخيله الشاعر من المحاسن والكمالات فالنبي ﷺ زائد على ذلك وأكثر منه، إذ لا يبقى فوق كماله ﷺ إلا كمال الألوهية، وليس لأحد أن يثبته له، فلم يبق الشاعر إلا أن يتبين ما هو عليه أو أنقص، وكلاهما لا طائل فيه، مع أن تبيان قدره ﷺ متعذر عادة إذ لا تصل إليه العقول فليس إلا القصور. وله در القائل:

ما قصر الشعراء فيك تعمدا

بل دق عن أفكارهم معناكا

نعم، يمكن الإتيان بشيء من حلاه ﷺ وأوصافه على نوع من الغرابة، وضرب من المبالغة، بحسب ما يرى الناس من حاله ﷺ.

ومن خلال هذه الآراء تبدو الملاحظات التالية:

* **الأولى**: أن اليوسي في محاولته تنظير حكمة مشروعية الشعر وأغراضه لم يبرز التحليل والشاهد مما تتطلبه الرؤية الفقهية نفسها.

* **والثانية**: أن اليوسي ينطلق في مفاهيمه النقدية من التصور الإسلامي، لكنه يضطرب فيجوز الكذب وإن فضل الصدق.

* **والثالثة**: أن اليوسي يحد من إبداع المدحة النبوية في أمرين:

أ- أن التجاوز في وصفه ﷺ يجب ألا يصل إلى الكمال الإلهي.

ب - أن لا طائل في مدحه ﷺ بما هو عليه أو أنقص.

ومن ثم فإشارته إلى تمثل نوع من الغرابة، وضرب من المبالغة تشكل رؤية فنية في المديح النبوي لأنها تلامس القصيدة المادحة.

* **والرابعة**: أن اليوسي استشهد برأي ابن الخطيب في المدحة النبوية في كتابه السحر والشعر دون أن يحلل أو يعلق.

هذه الملاحظات لا تنفي قيمة مفاهيم اليوسي النقدية، وهي - وإن كانت تحتاج إلى تكثيف لجمعها ودراستها - تقدم تصوراً للتواصل بين المفاهيم النقدية والقيم الإسلامية.

ويحاول أبو سالم العياشي أن ينظر قصيدة المديح النبوي ليعمق التواصل بين المفاهيم النقدية والقيم الإسلامية، فيرى أن الشعر ما تعتقد أنه يجري في نفسك، وما تسمعك حروف قوافيه فتخاله ألذ من السلوى وأطيب من المسك، وذلك بمراعاة اللفظ والمعنى والإيقاع والتأثير، يقول العياشي: «إن الشعر إنما كانت منزلته رفيعة واستحلته الأسماع لاشتماله على بدائع الألفاظ وغرائب المعاني وتجويد لحنه وتحريكه في النفوس وتنشيطه لها» (١٠) ويخص ترتيب الألفاظ على وزن مخصوص سبيلاً إلى انشراح الصدر للتضرع واللجوء إلى الله ما يقوى معه الرجاء في حصول المطلوب.

وبمنطق الفاضل والمفضول يقر العياشي أن مقام الرسول ﷺ أحق بمنزلته هذا الشعر، يقول: «وإذا كان الشعر على هذه الصفة فهو الذي يهدى إلى أبواب الرؤساء والأمراء والفضلاء فتستحسنه العقول ويتلقاه الناس بالقبول، ولا باب أكبر وأعظم، ولا مقام أعلى وأكرم، ولا أحد أرأس وأفضل منه، عليه صلاة الملك الودود، وأزكى السلام من الملك العلام.

لذلك يحرص العياشي على جعل الشعر مقتصراً على غرض المدحة النبوية، بشرط توفره على أسس فنية جمالية لكونه من العمل الصالح الذي يتقرب به، ولكونه يتطلب معرفة شروطه التي تتلخص في عنصرين:

الأول: معرفة ما يمدح به ﷺ من اللغة التي هي كالطهارة بالنسبة للصلاة، ويقف العياشي موقفاً متشدداً في سلامة علوم صناعة الشعر حتى لا يتسرب إليها لحن أو خطأ وهي في مقام مدح الرسول ﷺ، لما في ذلك من تنقيص لهذا العمل الصالح.

والثاني: معرفة ما يجب على مادحه وما يستحيل وما يجوز، ولا يتأتى ذلك إلا بعلم آداب النبوة.

ويقدم العياشي مصدرين لذلك: هما كتاب الشفا في حقوق المصطفى للقاضي عياض، وكتاب المواهب اللدنية للقسطلاني. وهذا العلم كما يقول: «علم شريف، فالنظر فيه والتأمل يزيد في الإيمان ويثمر المحبة، وبه تعرف ما يليق في الجناب النبوي وما لا يليق.

وبهاتين المعرفتين يكون شعر المدحة النبوية قاصداً إظهار تعظيمه ﷺ وذكر أوصافه، وإذا خلا من ذلك فلا مدح.

وللعياشي مفاهيم نقدية متعددة الجوانب في رحلته ورسائله حاول من خلالها أن ينظر الإبداع في الشعر من أجل تقعيد المدحة النبوية تراجع في رسالتنا عنه.

وإذا كان العياشي من وراء هذا الاهتمام حريصا على المقومات الإبداعية لقصيدة المديح النبوي، فإني أزعم أنه كان يرفض موقف بعض النقاد في ضعف إبداع

استمرت المدحة النبوية في الأدب المغربي تنافح عن الفضائل الإسلامية بعد أن حاد شعر التكسب عنها

المدحة النبوية كالباقلاني الذي يرى أن «الشاعر المفلق إذا جاء إلى الزهد قصر. وابن حزم الذي يعتقد أن المواعظ والحكم والمدائح النبوية خارجة عن حد الشعر لأنها تقوم على الصدق، بينما الشعر يقوم على الكذب. وابن خلدون الذي يقول: «من الصعب الإجادة في الربانيات والنبويات لأن معانيهما متداولة بين الجمهور، فتصير بذلك مبتذلة.

هذه جملة من المفاهيم النقدية لدى بعض نقاد الغرب الإسلامي، لاشك أنها تأثرت بالقيم الإسلامية في محاولتها تنظير قصيدة المدحة النبوية باعتبارها من أهم روافد «الإسلامية» في التراث العربي.

سمات المدرسة المغربية:

ومن خلال محاولة استجلاء بعض المفاهيم الإسلامية التي تضيف جديدا إلى التراث النقدي، يمكن تلمس خصوصية المدرسة المغربية في الإبداع والفكر حيث اتسمت بسمات جلى، نذكر من بينها:

أولاً: أن نزعة الفكر المغربي نزعة روحية اكتست كثيرا من الرؤى الدينية.

ثانياً: أن النمط الفكري بالمغرب حافظ على استيعاب التراث الإسلامي من غير تقليد أو جمود.

ثالثاً: أن التلازم بين المفاهيم النقدية والقيم الإسلامية يمكن أن يعتبر تصحيحا للسلوك الإبداعي الذي ساد المشرق والأندلس.

رابعاً: أن الثقافة المغربية – لغة وفكرا – سلمت من آثار غزو المغول والتتر والترك للمشرق العربي، مما حفظ للمغرب عروبته ووحدته المذهبية وخصوبة مراعيه العلمية.

خامساً: أن محاولة تأصيل نظرية للإبداع المغربي – رغم صعوبة التنظير – لا يتم إلا عبر الثقافة الإسلامية.

سادساً: أن الاهتمام بقصيدة المدحة النبوية أتاح «للإسلامية» – باعتبارها مذهبا أدبيا – أن يستقطب أغلب الشعراء في مجال الإبداع، وبعض النقاد في مجال الدرس الأدبي.

سابعاً: أن قصيدة المدحة النبوية صورة فنية متطورة عن القصيدة المادحة، واكتست خاصية التنوع في الأنماط. ولعل المولديات أبرزها، لأنها ظاهرة دينية فنية تميز بها الإبداع المغربي منذ عصر المرينيين «القرن الثامن الهجري» إلى يومنا هذا.

ثامناً: أن المدحة النبوية استمرت منافحة عن الفضائل والمثل بتصور إسلامي، بعد أن حاد شعر التكسب عنها. كما اكتسب النسيب فيها قيمة إسلامية جديدة تتزاوج مع الدلالة الشعرية لأسماء الأماكن النجدية التي لها ارتباط وثيق بالنزوع إلى روح التبدي في الشعر العربي، فكان النسيب سبيلا إلى الحنين والشوق الذي يستبد بالمادح ليعبر عن معاناته الروحية.

التلازم بين المفاهيم النقدية والقيم الإسلامية في المغرب العربي يُعَدّ تصحيحاً للسلوك الإبداعي الذي ساد أدب المشرق والأندلس

سئل (الفضيل) عن التواضع، ماهو؟ فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له، وتقبل الحق من كل من تسمعه منه.

الهوامش:

(١) راجع في الموضوع.

- المدائح النبوية في الأدب العربي /زكي مبارك/ المدائح النبوية، محمد علي مكي / مكتبة لبنان/ ط١، ١٩٩١م.

- الأدب في بلاد الشام / عمر موسى باشا.

- مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني /بكري شيخ أمين/ دار الآفاق الجديدة /ط٢/١٩٧٩م.

(٢) انظر حول الموضوع.

- مديح الرسول في فجر الإسلام / صلاح عيد / القاهرة ١٩٧٥م.

(٣) من هؤلاء الباحثين: زكي مبارك وعمر موسى باشا وعبد الله الطيب.

(٤) أدب الفقهاء / عبد الله كنون/ دار الكتاب/بيروت/ ص ١٥٧ – ١٥٨.

(٥) الأدب المغربي من خلال قضاياه وظواهره/ عباس الجراري/دار الثقافة/ص ١٤٣.

(٦) له قصيدة أسماها: «معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب» انظرها في الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء لأبي الربيع سليمان الكلاعي تحقيق مصطفى عبد الواحد.

(٧) انظر كتابه: السحر والشعر/تحقيق محمد مفتاح/ كلية الآداب، فاس/مرقون/وراجع في الموضوع:

- مفهوم السحر والشعر عند ابن الخطيب وشيخه ابن ليون التجيبي / سعيد بن الأحرش/مجلة كلية الآداب/تطوان/ عدد خاص بندوة ابن الخطيب/ص٣٤٧ – ٦٠.

- جوانب من النقد الأدبي عند لسان الدين بن الخطيب/ علي لغزيوي/ن.م.ص، ٤٠٧ – ٢٥.

(٨) انظر كتابه: لمح السحر من روح الشعر وروح السحر/تحقيق سعيد بن الأحرش/كلية الآداب – فاس/مرقون.

وهذا الكتاب مختصر كتاب لابن الجلاب الفهري.

(٩) زهر الأكم في الأمثال والحكم/الحسن اليوسي/ تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر/دار الثقافة ،الدار البيضاء/١٩٨١/ص: ١/٤٨.

(١٠) الثغر الباسم في جملة من كلام أبي سالم / محمد ابن حمزة بن أبي سالم العياشي/مخطوط/خ.ع.ك ٣٠٤ ص: ٣٠٤ – ٣٩٦.